

التحالف الأوربي ونهاية

حكم يوسف باشا القرمانلي 1795 - 1832

أ/ بوعناني العربي، جامعة تيارت

طالب دكتوراه بجامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

بإشراف أ.د/ بوغفالة واذان، جامعة معسكر

Abstract :

Youcef Pacha, the governor of Tripoli, came to the throne and founded the Karamanlian dynasty in international circumstances characterized by the growing pressures on the southern countries of the Mediterranean sea. These pressures compelled this Libyan governor to make concessions for the European great powers.

Among these concessions, he gave up to practice piracy in the Mediterranean. This policy led to the reduction of maritime incomes and the financial crisis. To overcome this crisis, he imposed more different taxes on his country.

Due the refusal of these taxes, Tripoli lapsed in civil wars which ended by the fall of the Karamanlian dynasty

تمثل فترة حكم الأسرة القرمانلية بطرابلس الغرب التي تمتد من سنة 1711م الى سنة 1835م تجربة سياسية هامة، تمكنت فيها الأسرة الحاكمة من احتكار السلطة مستغلة في ذلك ضعف الدولة العثمانية، ونجحت في تحقيق الإستقلال السياسي عن الإستانة، وراحت تنسج شبكة من العلاقات السياسية مع محيطها المتوسطي، الذي كان يرقب وبحذر هذه المتغيرات الجديدة في البداية على الأقل، ومن ثم سارع الى المضي قدما في الاعتراف بهذا الكيان السياسي الجديد فعقد معه إتفاقيات والمعاهدات، وفتح في حواضرها للقنصليات.

وتزامن وصول يوسف باشا الى الحكم مع عدد من الأحداث والمستجدات، التي كان لها تأثير بالغ الأهمية على طبيعة وبنية الدول والمجتمعات، والعلاقات بين الأمم والشعوب ولقد تجلت هذه التغيرات التي طرأت بأوروبا في الميادين الاقتصادية والسياسية، وما إليها من تداعيات تجارية وهيمنة عسكرية، نتج عنهما انتقال موازين القوى الى الضفة الشمالية من البحر الأبيض المتوسط، ان التطور إكتسى دائما طابع المعاكسة في حوض المتوسط. فلا يتقدم أحد الجانبين الا بشرط أن يتأخر الآخر كما لو كان المجال يضيق على إزدهار الإثنين معا.¹

وفي هذه الظروف المليئة بالأحداث والتطورات إستولى يوسف باشا على السلطة، والذي كان يتميز بالحنكة السياسية والقدرة الفائقة على المناورة، ويمثل الطراز الأول للملوك المغاربة الصغارالذين انزلوا

الرعب مدة طويلة من الزمن بسفن الدول الأوربية². وأصبح يشكل رقما صعبا في المعادلة السياسية، بالرغم من أنه لم يرث عن من سبقوه في الحكم سوى إيالة ضعيفة في نظر الدول الأوربية قياسا بالجزائر وتونس غير قادرة على مواجهة الأعداء واقتصاد منهارة³ وسعيا منا إلى تسليط الضوء على هذه الفترة المتميزة من تاريخ العلاقات الاوربية بباشوية طرابلس وإدراكا منا للنقائص التي مازالت تكتنف بعض جوانبها إنطلاقا من الوثائق التوفرة لدينا والتي لاتخلوا من معلومات قيمة تفيدنا في إستجلاء كثير من الحقائق وفهم أكثر لطبيعة وخصوصية هذه الفترة الغنية بالأحداث والتطورات خاصة وأنها جاءت في ظروف شعرت فيها أوربا بالقوة وأصبحت مصممة على التخلص من الشروط المذلة التي كانت تفرضها الإيالات المغربية، وعزم يوسف باشا على تحصيل أكثر للإتاوات والهدايا القنصلية.

فماهي المستجدات التي سمحت ليوسف باشا بإعادة القوة لأسطوله البحري ؟ وكيف تعامل مع الدول الأوربية التي لم تف بالالتزامات المالية ؟ وما هو موقف الدول الأوربية من السياسة المنتهجة من حاكم طرابلس ؟ وما هو المصير الذي آلت إليها باشوية طرابلس ؟ هذه جملة من التساؤلات التي سأحاول الإجابة عليها في هذه الدراسة والتي تكشف عن تغير موازين القوى بين ضفتي المتوسط منذ نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر مما أدى الى تراجع الإيالات المغربية عن ممارسة الجهاد البحري ، ووقوع الجزائر في قبضة الاحتلال الفرنسي ، وإنهيار حكم الأسرة القرمانلية .

جهود يوسف باشا في تقوية البحرية الطرابلسية

وعند توليه الحكم في جويلية سنة 1795م أكد له السلطان في فرمان صادر في شوال 1211هـ _ 1797م على ضرورة الاهتمام بالبحرية وتنظيمها والإكثار من المراكب الحربية أن تكون طرابلس مثل الجزائر وتونس في هذا المجال⁴. وأدرك في حينها أن مكانة طرابلس تتوقف على قوتها البحرية ، في إقامة علاقات دولية متوازنة تحترم بموجبها الدول الأوربية كامل تعهداتها وإلتزاماتها المالية كشرط أساسي لتأمين سفنها التجارية في البحر المتوسط

فأعاد الإستقرار للبلاد ، وكرس جهده للنشاط البحري الجهادي الذي يعتبره أهم مصدر للولاية وتمكن من إعادة بناء أسطوله البحري ، مستغلا المعاهدات المبرمة مع الدول الأوربية و أمريكا ، ومن خلالها يتم تزويده بكل المواد الضرورية لصناعة السفن والمراكب الحربية

كما إستفاد من الخبرات الفنية التي كانت تقدمها بعض الدول التي كانت لها علاقات ودية مع يوسف باشا كإسبانيا التي أرسلت إليه في سنة 1797م مهندسا متخصصا في بناء السفن ومعه

بعض العمال الأخصائيين ، وسمحت للطرابلسيين بإصلاح سفنهم في ميناء قرطاجنة⁵ بإسبانيا ويصف الطبيب جوناثان كودري في مذكراته التي كتبها عندما وقع في الأسر بطرابلس (1803-1805) حيث قال (...في 15 ديسمبر 1803م أنزلت الى البحر سفينة ذات قلاعين

للباشا كان قد بناها النجارون الإسبان وهي رشيقة جدا وقد أعدت لحمل ستة مدافع.6 وهكذا إستعاد الأسطول البحري الطرابلسي قوته خلال فترة وجيزة ، ويعود الفضل في ذلك الى صاحب الإيالة الذي لم يتأخر في دفع هدايا ثمينة للرجال والقادة الذين لهم خبرة ودراية في النشاط البحري من أمثال قائد الترسانة الرئيس عمر الشلي⁷ ، والضابط الفرنسي إيكارد (Icard) الذي لجأ إلى طرابلس واعتنق الإسلام واتخذ اسم مراد رايس .⁸

علاقة باشاوية طرابلس بدول أوروبا الشمالية

لقد رأت الدول الكبرى في عودة الأسطول البحري الطرابلسي نذير شؤم على مستقبل علاقاتها مع إيالة طرابلس فبذلت كل ما في وسعها لتوثيق روابط الصداقة معها⁹ ، أما الدانمارك والسويد فحاولتا إختبارنوايا الباشا الجديد وتباطأت في تقديم الهدايا له ، مما أغضب يوسف باشا فقامت البحرية الطرابلسية بأسر سفينتين دانمركيتين¹⁰ ، ولما حاول قائد الفرقاطة الدانماركية الدخول في المفاوضات مع الباشا لإبرام الصلح ، قام هذا الأخير برفع سقف المطالب ، فإنتهت المفاوضات الى الفشل ، فتلقى قائد أسطولها في البحر المتوسط بيل (Bill) أمر بالتحرك واشتبكى في معركة عنيفة مع الفرقة البحرية الناشئة التي أراد يوسف إختبارها في أول صدام بحري ، وتكبد الجانبان خسائر فادحة وانتهت المعركة بإبرام اتفاق الذي تعهدت فيه الدانمارك بدفع مبلغ 75000 قرش في الحال ، وبدفع مبلغ سبعة آلاف كل سنة.¹¹

أما السويد فقد حاولت الإحتفاظ بعلاقات ودية مع طرابلس الغرب ، لكن يوسف باشا رفض قبول الترضيات التي كانت تقدمها السويد وطالب برفع الجزية السنوية ، فرفضت السويد مطالب والي طرابلس ورأت فيها إخلالا بالاتفاقيات السابقة ، فهاجم الطرابلسيون السفن السويدية واسروا عددا منها ، فرفضت السويد وتم إبرام اتفاق حصل الباشا بمقتضاه على 7700 قرش دفعة واحدة ، على أن يدفع له مبلغ 15000 قرش كل ثلاث سنوات.¹²

مما شجع كل من اسبانيا ونابولي ثم البندقية على تقديم الهدايا والإتاوات السنوية مقابل حصول تلك الدول على أمن وسلامة سفنها التجارية .¹³

وهكذا استطاع يوسف باشا أن يوفر مبالغ مالية هامة في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات من بداية حكمه فدفعت اسبانيا 41000 قرش ونابولي 5000 قرش وفتيسيا 23000 قرش وأمريكا 49000 قرش وراجوس 4000 قرش والدانمارك 97000 قرش والسويد 77000 قرش¹⁴

التقارب الفرنسي الطرابلسي

كانت فرنسا تطمح في إقامة إمبراطورية استعمارية قوية ، وقادرة على منافسة إنجلترا في شرق المتوسط ، ولئن يتحقق لها ذلك الا من خلال إحتلال مصر وضمها الى ممتلكاتها و الوقوف بحزم أمام إنجلترا ومنعها من الإتصال بالهند . ومن جهة ثانية يضمن لها وجودها بالبحر المتوسط الشرقي مراقبة عن قرب

للأمبراطورية العثمانية. فأصبحت سياساتها تجاه الإيالات المغربية تتفق وغاياتها الرامية الى توثيق العلاقات والروابط البحرية والبرية مع وادي النيل، وعليه رأى نابليون¹⁵، قائد الحملة الفرنسية على مصر ضرورة المحافظة على العلاقات الطيبة مع طرابلس الغرب نظرا لقربها من مصر ومالطا. وفي طرابلس انتشر خبر احتلال نابليون لجزيرة مالطا، فأبلغ تاليران Talleyrand وزير خارجية فرنسا القنصل بوسيه Beaussier باحتلال فرنسا للجزيرة، وإقدام نابليون على إطلاق سراح ألفي أسير مسلم ويطلب منه إيصال الخبر إلى الباشا وحثه على المعاملة بالمثل وذلك بإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين والمالطيين الموجودين لديه في طرابلس¹⁶، ولأن بعد احتلال مالطة أصبحت طرابلس تشكل أهمية كبرى بالنسبة للفرنسيين في تزويد الجزيرة بالمواد الغذائية، وهذا ما جعل يوسف باشا يفكر جديا في المنافع التي سيحصل عليها من توريد كل ما تحتاجه الجزيرة. لكن هذا الحلم تحول إلى كابوس بمجرد نزول الفرنسيين في الإسكندرية وإستشعر يوسف باشا الخطر الذي أصبح جاثما على مقربة من الإيالة، لكن القنصل بوسيه طمأن الباشا بإقامة علاقات ودية، رغم معارضة القنصل الإنجليزي ومعاكسته، مما شجع الباشا على إرسال خطاب إلى الجنرال فامبواز Vamboise بمالطا بتاريخ 14 صفر سنة 1213 هـ الموافق 27 جويلية سنة 1798 قائلا: «... وحرصا منا على راحتكم، فإننا على إستعداد كامل لتلبية ما تطلبوه منا، لأنني صديكم في السراء والضراء، وإنني لعللى أتم الإستعداد مثلكم، للعمل على تحقيق كامل التفاهم بين بلدينا¹⁷. لكن الآمال التي علق عليها الباشا مستقبل إزدهار المالطيين للإيالة، بدأت في التلاشي عندما علم الباشا بأن مالطا حاصرها أسطول برتغالي يعمل في خدمة إنجلترا وكان لهذا الخبر نذير شؤم بالنسبة للباشا الذي كان يتطلع إلى تحقيق مكاسب تجارية من خلال تزويد الجزيرة بالمواد الغذائية.

وفي هذه الأجواء المشحونة بالتوتر، وصل فرمان إلى يوسف باشا من السلطان العثماني سليم الثالث يحثه فيه بالزحف على مصر وطرد الفرنسيين منها عقب احتلالهم لها سنة 1798 م لكن الباشا رفض الأوامر الصادرة إليه من الباب العالي، وفضل البقاء على علاقاته الطيبة مع فرنسا¹⁸ وكان حينها يدرك قوة البحرية الفرنسية التي هددت أكثر من مرة سواحل الإيالة، ولم يكن في مقدوره معاكسة الوضع الإستراتيجي المتشكل في البحر المتوسط، ومن المتعذر الدخول في مواجهة مجهولة العواقب، مع القوى الأوروبية وأن كل محاولة من هذا القبيل سيكون لها أضرار بالغة على البلاد والعباد.

علاقات إنجلترا بطرابلس الغرب

لقد أدى ضعف الدولة العثمانية، وتراجع هيبتها البحرية في البحر المتوسط، إلى زيادة الصراع بين الدول الأوروبية الكبرى وفي مقدمتها فرنسا وبريطانيا، لإيجاد موقع سيادي يسمح لهما بممارسة نفوذهما في الإيالات المغربية، وذلك بالحصول على مكاسب سياسية واقتصادية

تخدم مصالحهما الإستعمارية ، مما عجل بدخول الطرفين في سلسلة من الحروب التي كانت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر وراء إحكام إنجلترا سيادتها على البحر المتوسط . خاصة بعد نجاح الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسن (Nelson) في تحطيم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير في 1 أوت 1798 م ، فإنقطع بذلك الإتصال بين جيش فرنسا في مصر وحكومته ¹⁹ ، ولم يبق لنابليون من إتصال سوى الأراضي الليبية . وأمام إصرار الباشا على توثيق العلاقات مع فرنسا ، سارع القنصل الإنجليزي إلى توجيه خطاب الى الباشا طالبا منه بالتخلي عن علاقاته المريبة مع نابليون والإنصياع لأوامر السيد الكبير . وفي 9 ماي 1799 م وقعت معركة بين الأسطول الإنجليزي بقيادة الكومودور (د. كامبل D. Campbell)

والبحرية الطرابلسية برئاسة مراد راييس وكشف هذا الصدام البحري عن ضعف القدرات العسكرية ليوسف الباشا الذي اضطر إلى تسليم الرعايا الفرنسيين المقيمين ببلاده للأسطول الإنجليزي ²⁰ وتوقيع أول معاهدة سلام مع البرتغال بنفس الشروط التي إنفردت بها إنجلترا والجدير بالذكر أن إنجلترا حاولت أن تستفيد من التغيرات التي حدثت في البحر المتوسط مع بداية القرن التاسع عشر منها تقلص النفوذ الفرنسي في شرق المتوسط ، وإحتلالها لجزيرة مالطا مما أفسح لها المجال من إقامة علاقات تجارية مع طرابلس الغرب والتزود منها بكميات كبيرة من المواد الغذائية ، لقواتها العاملة في البحر المتوسط فعلى سبيل المثال في سنة 1806 م تم تصدير 698 رأس من الماشية بسعر إجمالي قدره (15000) دولار ²¹ ، وفي سنة 1808 م تم تصدير حوالي 1396 رأسا من الماشية بمبلغ يصل الى 30000 دولار ²² ، وهكذا أصبح لحضور الأسطول الإنجليزي في البحر المتوسط دور مهم في رعاية المصالح الاقتصادية مع إيالة طرابلس . وتوفير الحماية لعدة دول أوربية صغيرة ، فأدى ذلك الى تراجع عوائد النشاط البحري الطرابلسي ، وارتفعت الأصوات المنادية بالقضاء على البحرية المغربية وإلغاء القرصنة وتحرير الأسرى المسجونين وهذا ما حدث في مؤتمر فيينا 1815 م .

مؤتمر فيينا 1815 م .

في الوقت الذي انشغلت فيه أوروبا في تسوية مشاكلها الداخلية ، بالتفكير في إعادة رسم خريطة أوروبا ، كانت البحرية الطرابلسية تواصل أعمالها الجهادية ضد هولاندا والدانمارك والدول البحرية الإيطالية ، فبلغ عدد الأسرى لديها ما لا يقل عن 1500 أسير ²³ . الأمر الذي عزز مطالب الدول الصغرى ، وخاصة مملكة سردينيا التي طرح وزير خارجيتها البارون فاليزا (Valleza) مسألة أمن البحر المتوسط ²⁴ . على المجتمعين في مؤتمر فيينا ، ألح فيه على ضرورة وضع حد لمسألة استرقاق المسجونين في البلدان المغربية ²⁵ . ولما كان سيدني سميث على إطلاع واسع بما كان يجري في البحر المتوسط ابان الحروب النابليونية ، فقد أبدى اهتماما خاصا بمسألة الأمن ، فقد وجه في شهر أوت 1814 م مذكرة إلى الدول صاحبة الشأن للقيام بعمل جماعي ضد دول المغرب لتدمير أسطولها البحري ²⁶ .

ولما كانت إنجلترا القوة البحرية العظمى في حوض المتوسط ، فقد أسند إليها المؤتمرون مهمة اتخاذ التدابير اللازمة لذلك ، حيث عقد مؤتمر لندن مع بداية 1816م بمشاركة إنجلترا وهولندا وفرنسا والدويلات الإيطالية الذي أوصى بتكوين أسطول مشترك لضرب إيلات المغرب .

غير أن فرنسا رفضت المشاركة لأنها رأت فيه ما يشكل خطرا على مصالحها ولا تحبذ الانضمام الى تحالف تكون فيه تحت المظلة الإنجليزية²⁷ . وفي مطلع سنة 1816م توجه الى السواحل المغربية اسطول إنجليزي برئاسة اللورد إكسماوث (Exmouth) ووصل الى مياه طرابلس في 27 أبريل سنة 1816 م ، فتلقى من الباشا تعهدا يقضي بإطلاق سراح خمسمائة وتسعين أسيرا مقابل فدية مالية²⁸ . وبعد مغادرة اسطول اكسماوث ميناء طرابلس حتى تلقى البحارة الطرابلسيين الأوامر بإستئناف نشاطهم الجهادي وتم الإستيلاء على عدة سفن تابعة لحكومة البابا الأمر الذي أدى الى إعادة طرح مسألة أمن البحر المتوسط على القادة الأوربيين في مؤتمر إيكس لاشابيل 1818م وفيه إتفقت الدول الأوربية مجتمعة على رد حاسم ومنع المغاربة من ممارسة الجهاد البحري²⁹ ، وفي شهر أكتوبر -سنة 1819م وصل الأسطولان الإنجليزي والفرنسي ، بقيادة الأميرالان (فريمانتل Freemantel) و(جوريان دي لاغريفير Jurien De La Graviere) الى ميناء طرابلس وتسلم الباشا من الأميرالين نص الإنذار وصرح لهما بأنه سوف يترك الغزو³⁰ .

التفوق الأوربي وإنعكساته على إيالة طرابلس الغرب

إن الإحتلال الذي شهده ميزان القوة العسكرية بين أوروبا والإيالات المغربية وبصورة حاسمة منذ مطلع القرن التاسع عشر ، كانت له اثار سلبية على النشاط البحرية المغربية ، ولم يكن في مقدور يوسف باشا من فرض شروطه على الدول الأوربية الكبرى ، وأدرك والي طرابلس حقيقة التفوق الأوربي وذلك منذ إحتلال نابليون لمصر ورأى فيه خطرا كبيرا قد يهدد إستقرار حكمه ، هذا ما جعله يغلب منطق الحوار وحل المشاكل مع كل من فرنسا وإنجلترا بالطرق السلمية ، وإتقاء لما يمكن أن يدبرله من مكائد ، لكن عجلة الضغوط ظلت مستمرة ، وفي أواخر سنة 1815م قامت البحرية الطرابلسية بالإستيلاء على سفينة كانت تحمل علم هانوفر الألمانية ، فظن وارنجتون أنها سفينة إنجليزية ، الأمر الذي اثار غضبه وراح يطالب لا بإرجاع السفينة وبحارتها وتعويض ربانها فحسب بل بإعدام الرئيس الطرابلسي فوق ظهر السفينة الإنجليزية على مرأى من جميع الأهالي³¹ ، وحاول الباشا إرضاء القنصل وارنجتون بشتى الوسائل ، لكنه رفض الأمر وأصر على ان يتم شنق القرصان ، فاضطر على الموافقة مرغما وبهذا العمل تم إذلال يوسف أمام حاشيته ورعيته . ودلت هذه الحادثة عن عجز الطرابلسيين الكبير في مواجهة غطرسة القنصل الإنجليزي . وأن ميزان القوة لم يعد في صالح الإيالات المغربية .

كما تدخلت فرنسا سنة 1826م بواسطة قنصلها روسو وضغطت على الباشا بإرجاع السفن البابوية وطالبته بتقديم إعتذار رسمي لقداسة البابا ، ولما رفض الباشا ذلك ، وصلت فرقة بحرية يقودها القبطان (ارنوس دي سولسيه Arnous Des Saulsais) وطلبت تسليم السفن فورا لروما³² . وكان طلب قائد السفينة بأن تطلق 33 طلقة تحية للعلم الفرنسي بدلا من 27 طلقة التي كانت تحظى بها الدول الكبرى

، وأمام تهديدات القنصل الفرنسي بضرب المدينة بالقنابل ،رضخ يوسف باشا للشروط الفرنسية ،منها إطلاق سراح الأسرى وإعادة السفن لأصحابها كما يدفع الباشا مبلغ ألفين قرش لروما³³ .وكشفت هذه الواقعة مرة أخرى عن شعورالدول الكبرى بإمتلاكها لوسائل القوة التي لم تتردد في إستعمالها لإملاء شروطها وإجبار الإيالات المغربية للخضوع والإستسلام كلما دعت الحاجة الى ذلك .

ويتضح من خلال المراسلات والتقارير التي كانت تصل الى حكومات الدول الأوربية أن قوة الإيالات المغربية لم تكن على درجة كبيرة من العظمة ،بل يعود ذلك الى وجود رياس من ذوي أصول مسيحية مثل قائد البحرية الطرابلسية مراد ريس وتوفرها على سفن حربية من صنع أوربي أمريكي تمكنت من حيازتها ،إما عن طريق الحجز او المصادرة وفي هذا الصدد يقول القنصل الأمريكي في أحد رسائله : "إنها حسن الإرادة المسيحية وليست القوة المحمدية هي التي عضدت ولايات القرصنة هذه طيلة هذا الأمد "³⁴ .

إنهيار الأسرة القرمانلية

ان أسلوب إدارة الدولة المتبع في الإيالات المغربية ،منذ نشأتها كشفت عن مدى تخلفها ،وعدم مواكبتها للتطورات المتسارعة في أوربا التي قطعت أشواطا كبيرة سمحت لها بإحراز تفوق عسكري وإقتصادي واجتماعي جعلها صاحبة القرار في تغيير التوازنات الإستراتيجية لصالحها ، في حين دخلت إيالة طرابلس في أزمة أخذت ملامحها تتجلى في بعدين أساسيين الأول على المستوى العسكري المتمثل في ضعف الأسطول الحربي وعدم قدرته على منافسة الأساطيل الحربية لدول أوربا وأمريكا والثاني على المستوى الاقتصادي حيث كانت الإيالة تعتمد على موارد مالية جاهزة من إتاوات وهدايا وغصب وضرائب ،فبمجرد أقول النشاط البحري وماكان يدره من أموال حتى بدأت الإختلالات المالية تبرز بشكل جلي ،وأصبح موقف الباشا حرجا فتزايدت الإضطرابات الداخلية والضغط الخارجية ،وإزاء هذه الظروف المتردية إنتهج والي طرابلس مسلكين في التعامل مع الأزمة :إستخدام دبلوماسية العصا الغليظة مع رعاياه في الداخل والدبلوماسية الناعمة مع الخارج ،فعلى الصعيد الداخلي لم يجد يوسف باشا من وسيلة لتعويض خسائره سوى محاولة الزيادة في الضرائب ونهب رعاياه ،فجهزحملتين عسكريتين بقيادة ولديه علي بك وإبراهيم ،من أجل القضاء على ثورة عبد الجليل ،إنتهت هذه المغامرة العسكرية من دون تحقيق نتائج هامة ،ولم تخلف سوى الدمار كقطع أشجار النخيل والزيتون³⁵ وشجعت القبائل الأخرى على الثورة والتمرد على حكم والي طرابلس .

إن أزمة يوسف باشا القرمانلي وصلت به الى حد تدمير جزء من مدافعه ليستخرج منها نحاسا يستخدمه في صك عملة لا قيمة لها³⁶ ،وقد اشتكى الباشا من ذلك الى مشايخ المنشية قائلا لهم : "أما خير تعطوني على كل سانية ثلاثة دورو وإلا نبيعوا كماله المدافع."³⁷ أما على الصعيد الخارجي حيث كان احتلال الجزائر من قبل فرنسا وقع سيء على الباشا الذي إزدادت مخاوفه من أن يلقي حكمه نفس المصير ،فسارع الى إيفاد مبعوثيه الى الدول الكبرى ،من أجل الحصول على إعادة جدولة ديونه ،فأرسل بتاريخ (17 ربيع الأول 1246هـ /1831م) الرايس عمر الشلي إلى إنجلترا لكن توتر الأوضاع الداخلية حالت دون ذلك ،بسبب

دعم القنصل وارنجتون للثوار ، كما أرسل يوسف محمد بيت المال الى فرنسا في مهمة مماثلة الذي يبدو أنه نجح في تخفيض المبلغ الذي إقتصر على ديون الرعايا الفرنسيين.³⁸

وفي هذه الظروف الصعبة إزدادت مطالبات الباشا ، وفرض على شركائه من مسلمين ويهود المزيد من المال ، ويتحدث الفقيه حسن عن علاقة هؤلاء بالباشا ، حيث كان لا يكاد يمر شهر أو حتى أسبوع واحد دون يطالبهم بتوفير قسط من المال لتسديد الديون ، وأرغمهم على ذلك مستخدما ضدهم القوة ، فهرب منهم حوالي 370 شخصا الى القنصلية الإسبانية ، ثم فرض على 88 من وجهاء المدينة دفع ما قيمته 1500 ريال فما كان من البعض منهم سوى الهروب الى منزل القنصل الفرنسي للإحتجاج على ذلك³⁹ . ولما لم تفلح مساعيه في تجاوز الأزمة ولم يكن في إستطاعة أعيان طرابلس تحمل المزيد من الضرائب ، إتجه نحو الكلوغية المعفيين عادة من الضرائب لمطلبها بتوفير المال لمواجهة أزمة الديون ، وبهذا يكون الباشا قد تحول الى عدو في نظر الكثير وجب التخلص منه ، وفي خضم هذه الأحداث المتسارعة أعلن تنازله عن العرش لإبنه علي الذي دخل مع خصومه في حرب أكلت الأخضر واليابس ، ووفرت فرصة مواتية لعودة الحكم العثماني الذي به تم إسدال الستار عن تجربة حكم دامت أكثر من 125 سنة وهي تحتاج الى المزيد من البحث والدراسة لكشف الكثير من الخبايا التي تكتنف موضوع الأسرة القرمانلية .

الهوامش:

- 1- عبد الله العروي ، مجمل تاريخ المغرب عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار ، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة الى مؤتمر فيينا ، دار النهضة العربية بيروت 1974 م ، ص ، 485.
- 2- رودلفوميكاكي ، طرابلس الغرب تحت حطم أسرة القرمانلي ، نقاهللغة العربية ، طه فوزي ، دار الفرجاني طرابلس ليبيا ، بدون سنة ، ص ، 132 .
- 3- علي مفتاح إبراهيم ، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والإقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، منشورات مركز جهاد الليبي للدراسات التاريخية طرابلس ليبيا ، ط1 ، 2005 ، ص ، 296.
- 4- سامح عزيز ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، ترجمة عبد السلام أدهم ، دار الفرجاني ، القاهرة ، طرابلس ، لندن ، ب.ت ، ص ، 162 ، هامش رقم واحد .
- 5- رودلفوميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 137.
- 6- كودري ، جوناثان ، يوميات الطبيب جوناثان كودري ، في قلعة طرابلس الغرب (1803-1805) ، تعريب وتعليق الدكتور عبد الكريم أبو شورب ، طرابلس ، مركز جهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي ، طرابلس ، ليبيا ، 1982 ، ص ، 40.
- 7- محمد سعيد الطويل ، البحرية الطرابلسية في عهد يوسف باشا القرمانلي ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، ط1 ، 2002 ، ص ، 126.
- 8- نفسه ، ص ، 126.
- 9- رودلفوميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 137.
- 10- نفسه ، ص ، 136.
- 11- نفسه ، ص ، 137.
- 12- نفسه ، ص ، 137.

- 13- فيرو لوران شارل ،الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي ،ترجمة وتحقيق محمد عبد الكريم الوافي ،منشورات جامعة قاريونس بنغازي ، ط3، 1994، ص ، 376.وينظر أيضا :كاميللو مانغروني ، العلاقات البحرية بين ليبيا وإيطاليا تاريخ البحرية الليبية ،ترجمة وتقديم إبراهيم المهداوي ،مراجعة أحمد الجهاني ، منشورات جامعة قاريونس بنغازي ،ط1، 1992، ص ، 117. وإتوري روسي ، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة وتقديم خليفة محمد التليسي ، الدار العربية للكتاب ،ط3، 2009، ص ، 375.
- 15- نابليون : ولد في مدينة أجاكسيو في كورسيكا 1769 أي بعد عام واحد فقط من ضمها الى فرنسا ، تعلم بونابرت في الأكاديمية العسكرية في بريين وعين ضابطا في الجيش كان يهتم بدراسة النظريات السياسية ،وتولى قيادة الحملة الفرنسية على مصر 1798م وبعد رجوعه منها سنة 1799م أقام حكومة القنصلية وأصبح سيد فرنسا الأول .
- 16- احمد سعيد الطويل ،المرجع السابق ، ص ، 199.
- 17- نفسه ، ص ،
- 18- محمد حواش ، باشوية طرابلس من خلال المراسلات القنصلية الأمريكية ، العثمانيون في المغرب من خلال الأرشيفات المحلية والمتوسطة ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ،سلسلة ندوات ومناظرات رقم 123 ، مطبعة الأمنية الرباط ، ط1، 2005، ص ، 205.
- 19- نيكولاي إيليتش بروشين ،تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين ، ترجمة وتقديم عماد حاتم
- 20- إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 376.
- 21 - لاين كولافو ،ليبيا أثناء حكم يوسف باشا ، تعريب عبد القادر مصطفى المحيشي ، منشورات ، مركزدراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي ، طرابلس ، 1988، ص ، 89.
- 22- نفسه ، ص ، 89.
- 23- رودلفو ميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 172. وينظر أيضا : احمد سعيد الطويل ، المرجع السابق ، ص ، 300.
- 24- نفسه ، ص ، 171 . وينظر أيضا : احمد سعيد الطويل ، المرجع السابق ، ص ، 299.
- 25-E,leMarchant,L'Europe et la conquete d'Alger,d'après des documents originaux tires des archives de l'etat ,paris ,perrin et cie ,1913,p,21.
- 26- F,charle- Roux,la France et l'Afrique du Nord avant 1830,les precurseurs de la conquete Paris ,F. Alcan ,1832,pp.496- 498.
- 27- عبد الجليل ،التميمي ،بحوث ووثائق في تاريخ المغاربي (1816-1871)،ط2،الجزائر:ديوان المطبوعات الجامعية ،تونس :مركز البحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني ،1985، ص ، 57.
- 28- فيرو شارل ،المصدر السابق ، ص ، 394. وينظر أيضا :إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 390.
- 29- نفسه ، ص ، 403.
- 30- فيرو شارل ، المصدر السابق ، ص ، 403 – 404. وينظر أيضا : إتوري روسي ، المرجع السابق ، ص ، 394.
- 31- رودلفو ميكاكي ، المصدر السابق ، ص ، 179. وينظر أيضا : فيرو شارل ، المصدر السابق ، ص ، 397. و احمد سعيد الطويل ، ص ، 303.
- 32- نفسه ، ص ، 191.
- 33- نفسه ، ص ، 192.
- 34- محمد حواش ، المرجع السابق ، ص ، 208.

- 35- إلتيتش بروشين ، المرجع السابق ، ص ، 241.
- 36- المولدي الأحمر ، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا ، الفرد والمجموعة والبناء الزعامي للظاهرة السياسية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط1، 2009، ص ، 249.
- 37- نفسه ، ص ، 249.
- 38- أمجد سعيد الطويل ، المرجع السابق ، ص ، 346.
- 39- المولدي الأحمر ، المرجع السابق ، ص ، 249.